

## بلاغة الإقناع في الخطاب التفسيري للبيضاوي

د. زكرياء السرتي

باحث في اللسانيات وتحليل الخطاب (المغرب)

ملخص:

تناولت هذه الورقة البحثية نماذج من الخطاب التفسيري المسمى "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للإمام القاضي البيضاوي الشيرازي، ضمن إطار نظري هو التحليل الحجاجي للخطاب الذي يتوسل بطائفة من المفاهيم والإجراءات التحليلية المنبثقة عن نظريات الحجاج اللغوي والبالغي والمنطق الطبيعي التي صاغها أرفالد ديكر و شاييم بيرلمان و أ. رويول و ج. ب. غريز.

وقد سعينا إلى الكشف عن الخطاطة المؤسسة للخطاب التفسيري معتمدين مفهوما موسعاً للخطاطة الحجاجية يتمثل في قيام الخطاب التفسيري على شبكة التمثلات والصور التي يبينها ويحملها المفسر حول ذاته وذوات الآخرين والموضوع، ويود نقلها إلى المتلقي، والتي يعبر عنها في نظرية الحجاج اللغوي بالحجج والنتائج. ووفق هذا التحديد عمدنا إلى تعيين النتيجة الكبرى والنتائج الصغرى الظاهرة والمضمرة، وتحديد سلسلة الحجج والأدلة المعتمدة في دعم تلك النتائج، من خلال تفسير "أنوار التنزيل" للإمام البيضاوي.

الكلمات المفتاحية: التحليل الحجاجي للخطاب، الخطاطة الحجاجية، التفسير، الحجج.

Cette recherche traite plusieurs types de discours analytiques dits : «Les lumières de la révélation et les secrets de l'interprétation» de l'imam El Bidaoui. Ceci sous un cadre théorique qui est celui de l'analyse argumentative du discours liée principalement à plusieurs concepts analytiques soutirées des théories d'argumentation linguistique et rhétorique et de la logique naturelle citée par O. Ducrot, C. Perlmán, et Grize ...

Nous avons essayé de dévoiler le schéma qui institutionnalise le discours exégétique en adoptant un concept élargi du schéma argumentatif. Ainsi, ce discours exégétique est basé sur un réseau de représentations conçues par l'exégète sur lui-même, sur les autres et sur le sujet qu'il traite, il voulait donc les transmettre au récepteur. Ce réseau est connu dans la théorie argumentative linguistique par les arguments et les résultats.

Selon cette notion, nous avons pointé du doigt le grand résultat escompté et les petites conséquences apparentes et implicites. Nous avons aussi précisé une série d'arguments et preuves présentés qui consolident ces conséquences d'après l'exégèse de «les lumières de la révélation» de l'imam El Bidaoui.

**Les concepts clés sont** : L'analyse argumentative du discours /Le schéma argumentatif / L'exégèse / Les arguments.

#### تقلم:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى مقارنة نماذج من الخطاب التفسيري للبيضاوي ضمن إطار نظري هو التحليل الحجاجي للخطاب الذي يتوسل بطائفة من المفاهيم والإجراءات التحليلية المنبثقة عن نظريات الحجاج اللغوي والبلاغي والمنطق الطبيعي التي صاغها أرفالد ديكر و وشايم بيرلمان و أ. روبرول و ج. ب. غريز.

نقترح تصميمًا مخصوصًا لهذه الورقة البحثية، يقوم أولاً على تعريف موجز بتلك الجهود النظرية في حقل البلاغة والحجاج. ويقارب ثانياً بعض المقاطع الخطابية من "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي، عبر توظيف مفاهيم وإجراءات تحليلية متنوعة، منها الخطاطة الحجاجية والسلم الحجاجي.

#### المبحث الأول - البلاغة والحجاج:

لقد تعددت نظريات الحجاج بحسب تخصصات علمية مختلفة، وضمن مسارات فكرية وإيديولوجية متباينة. كما أن اختلاف "الحضور الحجاجي" من مجتمع إلى آخر، يعود بالأساس

إلى الطبيعة الثقافية والسياسية المهيمنة: طبيعة العنف والقمع والصراع، أو الحوار والتفاهم وقوة الكلمة.

يرجع بيير أوليرون ذلك التعدد إلى طبيعة الحجاج وطريقة اشتغاله. فالحجاج يستدعي الاستدلالات، ويلجأ إلى الرموز، وبشكل رئيس رموز اللغة langage، دون إقصاء التمثلات أي الصور. ويستخدم الحجاج العلاقات بين الأشخاص، ويستثمر النيات والأغراض والاستراتيجيات وإجراءات الإقناع، ويتخذ موقعه في سياق اجتماعي، اقتصادي، سياسي، إيديولوجي... وهكذا يرتبط الحجاج بتخصصات متعددة: المنطق، الشعب المختلفة في دراسة اللغة langage والأنظمة الرمزية (اللسانيات، تحليل النصوص والخطابات، علم العلامات)، علم النفس، العلوم الاجتماعية، علم التربية، علم التواصل...<sup>1</sup>

إن تعدد الحقول والمجالات المهمة بالحجاج سمح بتعدد نظرياته ومقارباته واستراتيجياته، وفي الوقت ذاته، ازدادت أشكال التداخل والتفاعل بين تلك الأطر النظرية. وتتميز الدراسات الفرنكفونية المعاصرة للحجاج، بالمقارنة مع الأعمال المنجزة بالإنجليزية، حسب بروتون وغوتيي، بكونها ذات طبيعة فلسفية أكثر من كونها تجريبية، رغم أن عددا من بينها يتميز بنزعة بيداغوجية حلية. وفي هذا السياق، يقترح الباحثان التمييز بين أربع مقاربات مختلفة:<sup>2</sup>

✓ مقارنة أخلاقية؛ تبنها فيليب بروتون PH. Breton استلهاما من بيرلمان، تلح على البعد الأخلاقي للحجاج.

✓ مقارنة اجتماعية تلفظية socio-énonciative أنعشها بشكل رئيس كريستيان بلانتان Christian Plantin وإيلي فينديش Uli Windisch.

✓ مقارنة إبستمولوجية épistémologique أو، بشكل أوسع، مقارنة فكرية intellectuelle روادها خاصة جان بليز غريز وجورج فينيو G. Vignaux.

✓ مقارنة بلاغية تقتفي خطى بيرلمان، وأبرز ممثليها ميشال ميير M. Meyer وأوليفي ربول O. Reboul.

وثمة تصنيف آخر لتلك النظريات الحجاجية بحسب مباحث البلاغة والمنطق الطبيعي واللسانيات مثلما نجد لدى أبي بكر العزاوي:<sup>3</sup>

**1- الحجاج البلاغي:** يتمثل الحجاج لدى برلمان (C. Perelman) في مجموعة من التقنيات الخطابية الموجهة إلى إقناع المتلقي أو الرأي العام. وهو إن كان يلح على ضرورة التمييز بين البرهنة والحجاج، فإنه يعتبر البرهنة شكلا من أشكال الحجاج، إلا أنها تختلف عنه من حيث إنها تركز على جانب واحد هو الجانب الصوري الاستنتاجي. فإذا كانت البرهنة يمكن أن تقدم على شكل حساب، فإن الحجاج يهدف إلى الإقناع والتأثير والاتفاق، ولا يمكن تصويره إلا في إطار نفسي اجتماعي.

**2- الحجاج المنطقي:** ينظر جان بليز غريز إلى الحجاج باعتباره نشاطا منطقيًا خطابيا؛ إنه نشاط خطابي لأن الأمر يتعلق بتفكير كلامي، أي أن الوسيلة المستعملة للتواصل هي اللغة، وهو نشاط منطقي لأنه يتمثل في مجموعة من العمليات الذهنية، ولأنه ينتمي بالتالي إلى ما يعرف بالمنطق الطبيعي. إن الحجاج هو مجموعة من الاستراتيجيات الخطابية لتكلم ما، يتوجه بخطابه إلى مستمع معين، من أجل تغيير الحكم الذي لديه عن وضع محدد. ويتأسس الحجاج عنده، انطلاقا من مفهوم الخطاطة التي هي أعم منه، فليس هناك إنتاج خطابي لا يؤدي إلى إنتاج خطاطات وتمثيلات عن العالم الآخر، ولكن ليست كل غاية خطابية حجاجية بالضرورة.

**3- الحجاج اللغوي:** أما النموذج الذي اقترحه أرفالد ديكر، فهو نظرية لسانية تدرس الحجاج في اللغة، باعتباره ظاهرة لغوية. الحجاج، بالنسبة إلى هذا اللغوي، فعل لغوي ووظيفة أساسية للغة الطبيعية، ثم إنه مؤشر له في بنية اللغة فهناك أدوات وروابط وعبارات لغوية يتمثل دورها الوحيد أو الأساسي في القيام بالعمليات الحجاجية.

إن العناية بإدراك أهم التوجهات النظرية في دراسة الحجاج، يفرض الاهتمام بأهم الرواد الذين قدموا تصورات نظرية لمسألة الحجاج واشتغاله في الخطاب الطبيعي، وما ثبت من تلازم

تاريخي بين الحجاج والبلاغة، وعلاقة المنطق بالحجاج، وتأكيد نظرية الحجاج اللغوي على الوظيفة الحجاجية الجوهرية للغة.

كان الإنتاج الفلسفي الأرسطي معينا ثريا في الرد على الحجاج السفسطائي خصوصا، وبلورة نظرية في الحجاج، ذات أسس وقواعد واضحة. و«يتميز الحجاج البلاغي بوضوح، منذ أرسطو، عن أساليب الإقناع المميزة للخطاب العلمي. فهو يهتم بالأقوال، أو إجمالا، بوضعيات التواصل المنتسبة إلى الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية، في الفضاء العمومي كما في المحادثة الخاصة. والوضع الاستمولوجي لتلك الأقوال هو ما يتعلق "بالمحتمل" لا ما يتعلق "بالحقيقة".»<sup>4</sup>

نشأ التمايز بين الحجاج البلاغي من جهة، وبين أساليب البرهنة والإقناع في الخطاب العلمي من جهة أخرى، منذ أمد بعيد، لتمكين الأفراد والهيئات في المجتمع اليوناني من استعمال حجاجي مرن وفعال في المرافعات القضائية كما في اتخاذ القرارات المتعلقة بالسلم والحرب. في هذا السياق التاريخي والنظري، حصل التجانس والتوافق بين الحجاج والبلاغة، لأننا «إذا بحثنا في الماضي عن التأمّلات النظرية التي اتخذت موضوعا محددًا هو الآليات التي يتم بموجبها تبادل وتداول الأفكار والآراء والتمثيلات بين الناس، سنصادف بسرعة، وبصياغة صورية واضحة، النظريات التي ظلت تغذي البلاغة منذ النشأة. كان الحجاج والبلاغة إذًا مترادفين في بداية الأمر.»<sup>5</sup>

ويبدو أن تاريخ الحجاج، وعلاقته بالبلاغة، شهدا تحولا من مرحلة إلى أخرى بفعل تلك التأمّلات النظرية لكوراكس والسوفسطائيين وأفلاطون وأرسطو، ثم أخيرا شايم بيرلمان وتولمين وميشال ميير... وبإمكاننا أن نختزل ذلك التاريخ الطويل من التفاعل بين الحجاج والبلاغة ضمن أربع مراحل كبرى:<sup>6</sup>

1- المرحلة التأسيسية هي مرحلة الكتب المدرسية الأولى، للخطابة وتعليم الكتاب، التي ظلت تهيئ المرافعات لفائدة المدعين والمتهمين. هذه المرحلة هي معاصرة لتعليم السفسطائيين.<sup>7</sup> وهي

كذلك مرحلة توطيد الديمقراطية اليونانية. وهي تمتد من أواسط القرن الخامس إلى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد.

2- مرحلة النضج هي فترة أوج الأرسطوطاليسية. سيقطع الفيلسوف الكبير مع إرث "الفنيين" technologues اللاأخلاقيين في المرحلة السابقة. كتابه "البلاغة"، الذي سيؤثر نظريا وبشكل مستمر على ما جاء بعده في ذات المجال إلى يومنا هذا، تم تأليفه على الأرجح في الفترة الفاصلة بين 329 و323 قبل الميلاد. هكذا سيوجه ثقافة الحجاج التي تنتشر في إطار الجمهورية وبدايات الإمبراطورية، وتشهد خطباء كبار مثل شيشرون وكوانتيليان Quintilien ينظمون ويقننون ويعممون ضوابط الخطاب الإقناعي.

3- مرحلة انحدار النظرية الحجاجية في حضن البلاغة تمتد من نهاية الإمبراطورية الرومانية إلى أواسط القرن العشرين. فقد تحولت البلاغة إلى نظرية الصور الأسلوبية figures de style وتقلص الجزء الحجاجي تدريجيا بفعل تأثير النجاح المتنامي للبرهنة (في العلوم الدقيقة والتجريبية) وفلسفة معينة للبداهة.

4- مرحلة التجديد هي مرحلة ظهور "البلاغة الجديدة"، لاسيما انطلاقا من أعمال الفيلسوف ورجل القانون البلجيكي شام بيرلمان، مثلما هي الأبحاث الأنجلوساكسونية بشأن الحجاج، خصوصا أعمال تولمين.

يتأسس معطى التجديد في أعمال الفيلسوف ورجل القانون البلجيكي شام بيرلمان من انخراط مشروعه في الإرث الأرسطي الذي يميز بين الاستدلال التحليلي والاستدلال الجدلي؛ فالأول يرتبط "بالحقيقة" والمنطق، والثاني ينطلق من مقدمات تألفت من آراء مقبولة بشكل عام، ويستنبط منها أطاريح يهدف إلى إقناع الآخر بها.<sup>8</sup>

ويتمثل الحجاج بالنسبة إلى بيرلمان CH. Perelman في مجموعة من التقنيات الخطابية الموجهة إلى إقناع المتلقي أو الرأي العام. وهو إن كان يلح على ضرورة التمييز بين البرهنة والحجاج، فإنه يعتبر البرهنة شكلا من أشكال الحجاج، إلا أنها تختلف عنه من حيث إنها تركز على جانب واحد هو الجانب الصوري الاستنتاجي. فإذا كانت البرهنة يمكن أن تقدم على

شكل حساب، فإن الحجاج يهدف إلى الإقناع والتأثير والاتفاق، ولا يمكن تصوره إلا في إطار نفسي اجتماعي.<sup>9</sup>

فالتصور البلاغي لبيرلمان جاء تحت عنوان "البلاغة الجديدة" التي سعت إلى إحداث قطيعة مع المنطق البرهاني من جهة، ومع مفهوم البدهاة الديكارتية من جهة ثانية. ولعل هذه القطيعة المقصودة هي ما مكن من فتح الطريق أمام منطق حجاجي، غير صوري. هكذا يحدد بيرلمان الحجاج بوصفه دراسة "التقنيات الخطائية التي تسمح باستثارة أو تنمية انخراط العقول في الأطاريح التي تقدم لكسب قبولها".<sup>10</sup>

و«تمفصل البلاغة الجديدة بشكل أساسي حول تحليل "التقنيات الحجاجية" التي تظهر على محورين هامين: من جهة، محور الخطاب نفسه وبالأخص البنيات الحجاجية التي يستخدمها؛ ومن جهة أخرى، محور أثر هذا الخطاب على الجمهور، في ارتباط مع قصد صاحبه. في الحالة الأولى، تدرس الحجج و كيفية تصنيفها؛ وفي الحالة الثانية، تدرس وضعية التواصل التي تنشئ فعل الحجاج».<sup>11</sup>

لقد عقد حاييم بيرلمان الفصل الثاني من كتاب "الإمبراطورية الخطائية" لدراسة الحجاج من خلال علاقة الخطيب بمُستمعِهِ، فألح على ضرورة أخذ المتلقي والظروف النفسية والاجتماعية للتواصل بعين الاعتبار من أجل تحقيق حجاج فعال. وإذا كان الخطاب الموجه إلى متلق خاص *Auditoire particulier* يهدف إلى الإقناع، فإن الخطاب الموجه إلى المتلقي الكوني (العام) *Auditoire universel* يهدف إلى الاقتناع. والفرق بين الإثنين يبين الإقناع الذي يخاطب الخيال والعاطفة، والاقتناع الذي يخاطب العقل.<sup>12</sup>

لا تختلف البلاغة في نظر ميشال ميير *Michel Meyer* عن الحجاج... يتعلق الأمر بإجراء *procédure* عقلي لاتخاذ قرار في وضعية الشك والاحتمال. وسيستعير تعريف البلاغة من كوانتيليان *Quintilien* الذي عدها "علم الفصاحة الذي يهتم في الوقت نفسه بجميع مزايا الخطاب وحتى أخلاقية الخطيب ما دام التحدث حقيقة لا يتم بدون أن يكون المتكلم رجلا صالحا". لكن هذه الفصاحة تستوفي عددا كبيرا من الأهداف التي يصفها ميير كما يلي:

- \* تحقيق الإقناع والاقناع، وخلق القبول والتصديق.
- \* الإعجاب، الإغواء أو التلاعب، تسويق الأفكار (مهما كان الثمن) من أجل تمريرها كما لو كانت حقيقية vraie، أو لأنها حقيقية أو يعتقد فيها ذلك.
- \* تمرير القريب من الحق والرأي والمحتمل بعقل جيدة وحجج، مع الإلماع إلى الاستدلالات أو استخلاصها من أجل الآخرين.
- \* الإيجاء بالضمي من خلال الصريح.
- \* إنشاء المعنى المجازي، والاستنتاج من المعنى الحرفي، واستخدام صور أسلوبية figures de style وحكايات لهذا الغرض.
- \* استعمال كلام مجازي وأسلوب (مؤسلب)، أي أدبي.
- \* اكتشاف مقاصد المتكلم أو الكاتب.<sup>13</sup>

وينظر ميشال ميير إلى الحجاج «بوصفه جهدا إقناعيا. وسيصبح البعد الحجاجي أساسيا في اللغة، لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه. من جهة أخرى، يميز الحجاج كذلك بوصفه استدلالا غير صوري، وغير مُلزم في تعارض مع الاستدلال المنطقي، مع الضرورة الصارمة وبدون استدعاء. هذان التعريفان مترابطان: إذ لا يقع الحجاج إلا بسبب كون العقول لا تتربط مع الضرورة المطلقة (أو الحتمية) للرياضيات، و بالتالي وجود موضع لخلاف محتمل»<sup>14</sup>

أما أوليفي ريبول Olivier Reboul فهو يستلهم أرسطو مجيبا عن السؤال: ماذا نقصد حين نتحدث عن خطاب بليغ، أو عن الملمح البلاغي لخطاب ما؟: «البلاغي، في أي خطاب، هو ما يجعله مقنعا باتحاد المضمون والشكل. أقصد بالمضمون المحتوى الإخباري، والبنية المنطقية للخطاب، وبالشكل كل ما ينبع من الوجدان (الإثارة والتهيج)، كما أقصد البناء (التنظيم: Disposition) والأسلوب ثم الأداء في آخر المطاف. وأضيف بأنه يمكننا أن نعرف حضور ما هو بلاغي من خلال هاتين العلامتين: استحالة شرح الخطاب وانغلاقه»<sup>15</sup>

هكذا اصطف روبول إلى جانب الفضاء النظري الأرسطوطاليسي، وعرف البلاغة بأنها فن الإقناع بوساطة الخطاب، لكنه رفض أن يبت بين التيارين البارزين في الستينيات من القرن الماضي: تيار "البلاغة الجديدة" لبرلمان من جهة، وتيار رولان بارث وجيرار جنيت من جهة أخرى. في نظر روبول، ينبغي أن تنجز البلاغة تركيباً وترابطاً بين الحجاج والأسلوب ضمن الوظيفة نفسها. والتصميم - المثير للاهتمام، بشكل كلي - الذي يقترحه روبول يفصل الوظائف الثلاث للخطاب، البرهانية والحجاجية والخطابية (الأسلوب)، ويعيد تجميعها في حقلين كبيرين: الحقل العقلي le rationnel الذي يضم البرهانية والحجاجية، والحقل البلاغي الذي يضم الحجاجية والخطابية.<sup>16</sup>

ويمكن أن نقف أيضاً عند مميزات الحجاج، كما لخصها روبول مستلهما جهود بيرلمان وأولبريشت تيتيكا، إذ قال: «يتميز الحجاج بخمسة ملامح رئيسية:

1. يتوجه إلى مستمع؛
2. يُعبر عنه بلغة طبيعية؛
3. مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية؛
4. لا يفترق تقدمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة؛
5. ليست نتائجه (خلاصاته) ملزمة.

بناء عليه أتساءل: أليست هذه الملامح، التي تميز الحجاج عن البرهان، هي نفسها ما يجعله بلاغياً بالضرورة.<sup>17</sup>

وبالعودة إلى أعمال تولمين، فإننا نجد بأسف لكون المنطق ظل إلى الآن متنامياً في ابتعاد جذري عن المناقشة العادية. ويرثي لإقامة مسافة فاصلة بين المنطق الصوري ومحاولاتنا اليومية لإثبات وتزويد آرائنا ووضعياتنا المتنوعة بعقل ومبررات. وبحسب تولمين، فإن لصورنة المنطق نتيجتين سلبيتين عظيمتين: فهي تحرمه جزءاً كبيراً من قدرته في مجال التطبيق، وتقود إلى طريق معرفية مسدودة.<sup>18</sup>

و على الرغم من أن تولين يسلم بوجود حجج منطقية وحقل منطقي للحجاج، فهو يعترض على فكرة أن تكون الأنواع الأخرى للحجج والحقول الأخرى للحجاج موزونة بمقياس الحجج والحقل المنطقيين. ويعارض كذلك النظرة التي تسلم بأن معايير الحقل المنطقي تعد معايير كونية. بموجبها يمكن تقييم معايير الحقول الأخرى، والنتيجة هي جعل هذه الحقول قابلة للتخفيض والتقليص بالمقياس إلى الحقل المنطقي.<sup>19</sup>

### المبحث الثاني - الخطابة الحجاجية في الخطاب التفسيري:

من المفيد في مجال الدراسات البلاغية والحجاجية المعاصرة السعي إلى الكشف عن الخطابة الحجاجية الثابتة في أنواع عديدة من الخطابات والنصوص الدينية والقانونية والسياسية والإعلامية وغيرها، وذلك من وراء ألفاظها وجملها وعباراتها، وعبر دراسة تعابيرها الحقيقية والمجازية، وأساليبها وصيغها التي يتم اختيارها بدقة وعناية لأجل تحقيق أعلى درجات التأثير والإقناع والاقناع.

ويعيننا الكشف عن الخطابة المؤسسة للخطاب الموضوع تحت مجهر الدراسة والتحليل، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"<sup>20</sup>، وهو الخطاب التفسيري للإمام القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي الشافعي، ويلزمنا أن نصوغ سؤالاً مؤسساً وموجهاً لتحليلنا الحجاجي: ما الذي نقصده بمفهوم "الخطابة الحجاجية"؟

#### مدخل إلى مفهوم الخطابة الحجاجية:<sup>21</sup>

يطلق بالمسليف اسم الخطابة على ما يسميه دو سوسير "لغة" *langue*؛ بالنسبة إليه، الخطابة، التي هي اللغة *langue* بوصفها شكلاً خالصاً، هي مخالفة من جهة للمعيار *norme* الذي هو اللغة بوصفها شكلاً مادياً، ومخالفة من جهة أخرى للاستعمال أو الممارسة *usage* الذي هو اللغة بوصفها مجموع عادات نطقية *articulatoires* لمجتمع معين.<sup>22</sup>

أما جان بليز غريز فقد عمل على بلورة نظرية التخطيط *la Schématisation* في إطار مركز الأبحاث السيميولوجية التابع للجامعة السويسرية بنوشاتل، وهي النظرية التي تقترح

نموذجاً للتفاعل اللغوي الذي يشكل بديلاً مهماً لخطاطات التواصل التقليدية. ففي الإطار النظري للمنطق الطبيعي، صاغ ج ب غريز خمس مسلمات أساسية:<sup>23</sup>

1. مسلمة الحوارية dialogisme: هذا المفهوم المنسوب إلى باختين، يغطي ظروف التبادل والتلفظ. ذلك أن طرفي التفاعل (أ) و(ب) هما فاعلان على حد سواء في بناء المعنى.
2. مسلمة وضعية التالكالم situation d'interlocution: تمثل هذه الوضعية بعداً ملموساً (زمان، مكان، غائية الخطاب) وبعداً نظرياً (إطار سوسيو - تاريخي معين).
3. مسلمة التمثلات: أول التمثلات الثلاثة الأساسية هو الذي للمتالكلم (أ) حول ذاته، وثانيها هو الذي للمتالكلم حول المستمع، وثالثها هو الذي للمتالكلم حول الموضوع Thème. وهذه التمثلات هي منضدة فيما بينها.

4. مسلمة المسبقات الثقافية préconstruits culturels : يتم في التبادل l'échange تحريك (توظيف) مجموعة من المعارف المتألفة فيما بينها. إنها توفر إطاراً للمعارف وللمصافي التي تكون فيها الخطابات منتجات لغوية واجتماعية.

5. مسلمة بناء الموضوعات la construction des objets: تشكل موضوعات الخطاب أنظمة إحالية les référentiels للتخطيط؛ هذا البناء هو بناء تشاركي ينتج عن تصريف وجهتي نظر (أ) و(ب).

يسند غريز إلى مفهوم "التخطيط"، الوارد ضمن المسلمات المذكورة، تصوراً خاصاً يشرحه قائلاً:<sup>24</sup> «بإمكاننا أن نقول إن التخطيط يعرض موضوعات الفكر التي يشترك المتحاورون في بنائها. لا تبني هذه الموضوعات من فراغ وهي، في الواقع، تستند إلى مجموعة من المعارف المشتركة التي تتميز بمظهرين أساسيين؛ أولهما هو كونها، ليس فقط مشتركة، ولكن كل طرف يعرف بأن الآخر يعرف كذلك. وثانيهما هو كونها موجودة بشكل دائم، وذات طبيعة اجتماعية.»

إن خطاطة ج ب غريز - التي أوردها قاموس تحليل الخطاب - تكشف مجمل العناصر المساهمة في الوضعية التخاطبية بما تتضمنه من تكوين وإعادة تكوين الصور الذهنية:<sup>25</sup>

Place du locuteur	Situation d'interlocution	place de l'auditeur
A →	Schématisation	B →
Construit	images (A),images (B),images (Thème),	Reconstruit
En fonction de préconstruits culturels, représentations, finalité		En fonction de ce qui est proposé, de préconstruits culturels, représentations, finalité

وفي سياق فحص أعمال ج ب غريز، أكد ج م آدم على أربعة مظاهر لمفهوم

التخطيط الذي أعاد تحديد مكانته ضمن إطار اللسانيات النصية وتحليل الخطاب: 26

♣ التخطيط هو في نفس الوقت عملية ونتيجة.

♣ كل تمثل خطابي *représentation discursive* هو بياني (تخطيطي)

.schématique

♣ كل تخطيط هو بناء تشاركي.

♣ كل تخطيط هو اقتراح صور.

ونجد في مجال الدراسات النفسية دلالات محددة وواضحة لمفهوم الخطة والتخطيط والمخطط: 27 «المخطط أو التخطيط أو البرنامج... وتكون جميعها خططا ذهنية تعتبر كأها إطار لحل مشكلة عملية أو كأها رسم خطوات تتبع لإنجاز مشروع أو تحقيق هدف معين تحقيقا فعليا فيما بعد.»

كما يتضمن تعريف المخطط والخطة معنيين متقاربين، هما: 28

1. خطة لبحث أو لتنفيذ مشروع، وتحديد خطواته.

2. رسم إيضاحي تمهيداً لتنفيذه، أو لإدخال تعديلات عليه قبل التنفيذ بحيث يصح

الأساس الذي ينفذ الأمر المعني وفقه، وتبعاً لما هو موجود به.

نستثمر هذه التصورات التي سقناها لمصطلح الخطاطة، وما يرتبط به من مشتقات مثل

المخطط والخطة والتخطيط، مستلهمين الطبيعة الحجاجية للغة الطبيعية التي تقوم، ليس فقط

على الوظيفة الإخبارية، وإنما تقوم أيضاً، وبشكل جوهري، على وظائف التأثير والتوجيه والإقناع، وهي الوظائف التي لا تنعقد للغة إلا من خلال اشتغال حجاجي عبر مستوياتها المختلفة والمتكاملة؛ المعجمية والصرفية والتركيبية والدلالية.<sup>29</sup>

لقد اتجهت النظريات الناشئة في حوض فلسفة اللغة والتداولية إلى فكرة التأثير والإنجاز انسجاماً مع الوضعيات التخاطبية - التواصلية ووفقاً للشروط المقامية المتعددة والمرنة. وتؤكد هذا الاتجاه مع ما قدمته تداولية ديكرود المدججة من تصورات بشأن وجود تسلسلات ترتبط من خلال علاقات حجاجية متنوعة، وعلى أساس استخدام عدد من الروابط اللغوية والمنطقية التي تتكفل بتحقيق الانتقال من الحجج إلى النتائج (التدرج) أو من النتائج إلى الحجج (التقهقر).

بناء على هذا المنظور، ينخرط المتكلم في العلاقة التخاطبية التي تحدد حقيقة الكلام وماهيتها، وهي تعني دخول المتكلم في علاقة مع الغير<sup>30</sup>. ولا يخفى ما في انخراط المتكلم من التزام أكيد بسنن اللغة وقواعدها قبل أي حديث عن الشروط الخارجية المرتبطة بالمقام وعن المعارف المشتركة مع المخاطبين المحتملين.

انطلاقاً من ذلك الالتزام بقواعد اللغة المتحدث بها، يتأسس تحريك وإعمال القدرات والمهارات المكتسبة في انتقاء الإمكانيات اللغوية "الملائمة" (الإمكانات الصوتية والمعجمية والتركيبية وغيرها) من جهة، وتشغيل منظومة المعارف والقيم والمعطيات المشتركة مع المخاطب (معارف ومعطيات بشأن الإنسان والمجتمع والكون) من جهة ثانية؛ وذلك لأجل بناء خطاطة حجاجية هي - في حقيقة الأمر - مجموعة تمثلات وصور يتبناها المتكلم ويريد أن ينقلها إلى المخاطب ويوجهه بها إلى حيث يريد. ولا يتأتى لهذه الخطاطة الحجاجية أن تنتقل من طرف إلى آخر دون المرور عبر مكونات اللغة وأنظمتها ومستوياتها، وكذا عبر آليات ومستويات الاشتغال الخطابي.

إن هذا التحديد الذي نتبناه هنا لمفهوم الخطاطة الحجاجية، لا يتعارض في نظرنا مع مذهب ديكرود بشأن تلازم الخطاب والحجاج، وخاصة حينما يقول: «عندما يتعلق الأمر بالخطاب، يبدو الوضع مختلفاً كلياً. ففيه يكون تسلسل الأقوال ذا مصدر داخلي، إنه مؤسس

على طبيعة القول، أو إن شئنا، على معنى القول لا على حالة العالم التي يحيل عليها. والحال أن المحور الأساس للنظرية الحجاجية هو كون معنى قول ما يتضمن إشارة مباشرة إلى تكملته المحتملة: أمر جوهرى إذاً أن يستدعي هذه التتمة أو تلك، وأن يقصد إلى توجيه الخطاب التالي في هذا الاتجاه أو ذاك.<sup>31</sup>

لا نفهم من هذا القول استبعاد المرجع والسياق اللذين تقترحهما نظرية غريز في التخطيط، وإنما يثبت تأسيس تسلسلات الخطاب بدءاً على مصدر داخلي مع الحاجة أثناء انخراط المتكلم في وضعيات تواصلية محددة إلى تحريك وتشغيل المعارف والقيم والمعتقدات ذات الطبيعة الثقافية والاجتماعية.

### الخطاطة الحجاجية في "أنوار التنزيل" للبيضاوي:

سنعتمد مفهوماً موسعاً للخطاطة الحجاجية يتمثل في قيام الخطاب التفسيري على شبكة التمثيلات والصور التي يبنيناها ويحملها المفسر حول ذاته وذوات الآخرين والموضوع، ويود نقلها إلى المتلقي، والتي يعبر عنها في نظرية الحجاج اللغوي بالحجج والنتائج. سنسعى وفق هذا التحديد إلى تعيين النتيجة الكبرى والنتائج الصغرى الظاهرة والمضمرة، وتحديد سلسلة الحجج والأدلة المعتمدة في دعم تلك النتائج، من خلال تفسير الإمام البيضاوي.

ننطلق مما جاء في خطبة الكتاب لنستخرج نماذج من تلك التمثيلات والصور التي هي نتائج وحجج في متن الخطاب التفسيري. قال الإمام البيضاوي:

أ- " لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها."<sup>32</sup>

ب- "إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام وبمعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بعد أن أتممه "بأنوار التنزيل وأسرار التأويل."<sup>33</sup>

يقودنا تأمل المثالين (أ-ب) إلى إدراك جوانب من التخطيط الحجاجي في الخطاب التفسيري، فنعتبر أن النتيجة الكبرى (ن) لهذا الخطاب - أو المدونة التفسيرية - هي إقناع

جمهور المتلقين بامتلاك المفسر لخاصية "الأهلية والكفاءة" لولوج عالم تفسير النص الديني وتأويله، وذلك استناداً إلى حجة (ح) "البراعة في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، والتفوق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها." فالمفسر يريد أن يفوز برهان البراعة والتفوق، ويضع نفسه ضمن قائمة مفسري النص القرآني.

ومع أن البيضاوي يشير في موضع آخر من خطبة الكتاب إلى "قصور بضاعته العلمية، فإنه يعود لترجيح مضيه في إعداد التفسير بعد الاستخارة. ولهذا، نرى أننا بصدد حجتين أخلاقيتين؛ أولاهما إظهار "الاعتذار والتواضع"، وثانيتهما "التضرع والاستخارة". وهما معاً يمكن أن يكونا حجتين تدعمان نفس النتيجة السابقة، وهي "الأهلية والكفاءة".

ثم إن الدلالة الحجاجية لأسلوب القصر في القول (أ) تظل هي الأقوى في السلم الحجاجي المؤدي إلى النتيجة الكبرى للخطاب (ن):

✓ لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها.

نعد هذا القول في خطبة الكتاب تمثلاً يقدمه المفسر حول ذاته، ويتحول وفق الطبيعة الحجاجية للخطاب إلى حجة قوية داعمة لنتيجة كبرى يهدف إلى ترسيخها في أذهان المتلقين، أو على الأقل رفع درجة التصديق لديهم بصحتها.

نضع الحجج على سلم ترتيبي يظهر قوة بعضها بإزاء بعض، فنعد الحجة (ج) هي الأقوى والأعلى في هذا السلم الحجاجي الذي يتجه نحو خدمة النتيجة المطلوبة في الخطاب التفسيري، وهي إقناع القراء والمتلقين بأهلية المفسر وكفاءته العلمية والخلقية.

ن "الأهلية والكفاءة"

ج- "لا يليق.. إلا من.."

ب- "التضرع والاستخارة"

أ - "قصور بضاعته العلمية"

ونرجع الآن إلى متن الخطاب لنرصد التمثلات الأخرى التي يقدمها المفسر بشأن "الموضوع" و"الأخرين" المشاركين في الوضعية التخاطبية. وتشكل الأمثلة التالية (ت-ث-ج) مجموعة من الأقوال التي أعدنا صياغتها انطلاقاً من متن خطبة الكتاب: <sup>34</sup>

ت- القرآن الكريم هو الفرقان الذي يميز الحق عن الباطل.

ث- القرآن الكريم نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

ج- القرآن الكريم هو كتاب تحد للخطباء والفصحاء والبلغاء.

يعتقد المفسر أن القرآن الكريم كتاب الله تعالى الذي أنزله على الرسول عليه السلام لإنذار الناس أجمعين، وبيان الحق والهدى، ومحاربة الباطل والضلال. وتعد هذه الدلالات بمثابة تمثّل خاص بالموضوع، ولهذا يرقى الجهد اللغوي والبلاغي للمفسر إلى درجة عليا ضمن الإنتاج العلمي والخطابي: "أعظم العلوم مقدارا وأرفعها شرفا ومنازا علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها ومبنى قواعد الشرع وأساسها."

أما التمثلات الخاصة بالآخر، فيمكن استخلاص بعضها من القولين التاليين: <sup>35</sup>

"من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فهو في الدارين حميد وسعيد."

ح- "من لم يرفع إليه رأسه وأطفأ نبراسه يعيش ذميماً ويصل سعيراً."

يميز المفسر بين صنفين من المتلقين للخطاب القرآني؛ صنف يستمع إلى الرسالة الإلهية ويصدق بها، وصنف يكذب ويتكبر ويعرض. وتكمن الوظيفة الحجاجية للخطاب التفسيري في تقوية المخراط جمهور المتلقين في الأطروحة الرئيسة عبر تشغيل سلسلة من الحجج والتقنيات الاستدلالية والبلاغية.

وهنا يمكن أن نتساءل عن المسارات أو الخطط الحجاجية المحتملة التي يضعها المفسر بين يديه لبناء القوة الإقناعية الملائمة لكل صنف من المتلقين المحتملين للقرآن الكريم. فنقول إن دراسة الخطاب التفسيري وتحليل مقاطعه الخطابية وفقاً للمنظور الحجاجي البلاغي، كفيلاً باستخراج كثير من تلك الخطاطات التي يستدعي بناؤها تحقيق أقصى درجات التلاؤم مع المعطيات النفسية والاجتماعية والثقافية المرتبطة بالمتكلم والمخاطب.

يعضد هذا ما ذهب إليه بيرلمان في الفصل الثاني من كتابه "إمبراطورية البلاغة"، إذ ألح على ضرورة أخذ المتلقي وظروفه النفسية والاجتماعية بعين الاعتبار من أجل تحقيق حجاج فعال. علماً أن الخطاب الموجه إلى متلق خاص *Auditoire particulier* يهدف إلى الإقناع، بينما يهدف الخطاب الموجه إلى المتلقي الكوني (العام) *Auditoire universel* إلى الاقتناع. والفرق بين الإقناع الذي يخاطب الخيال والعاطفة، والاقتناع الذي يخاطب العقل.<sup>36</sup>

كما يمكن في هذا السياق أن نستحضر باقي المسلمات الأساسية التي صاغها ج ب غريز، مثل مسلمة وضعية التكالم *situation d'interlocution* التي تمثل بعداً ملموساً (زمان، مكان، غائية الخطاب) وبعداً نظرياً (إطار سوسيو - تاريخي معين)، ومسلمة الحوارية *dialogisme* التي تفيد أن طرفي التفاعل (أ) و(ب) هما فاعلان على حد سواء في بناء المعنى.

## الهوامش:

1 -Pierre Oléron : L'ARGUMENTATION, p :13.

2 -Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, p :95-96.

3- أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج. ص 41.

4 -Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, op. cit. p :8.

5 -Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, p :9.

6 -ibid. p :9-10.

7- «أطلق اسم السفسطائيين بدءاً من النصف الثاني للقرن الخامس قبل الميلاد على جماعة من الرجال المفكرين الغرباء عن أئتنا والذين اتخذوا من هذه المدينة مكاناً يمارسون فيه مهنة التعليم معتمدين كلياً على الإقناع. اعتمد السفسطائيون على الجدل الكلامي خاصة على الخطابة وما تفرضه هذه من فصاحة وبلاغة» الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، رئيس التحرير: د معن زيادة، المجلد الأول، الطبعة الأولى 1986، ص 479.

8 -CH. Perelman, L'empire Rhétorique, Rhétorique et Argumentation. p :15-16.

9- أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، مرجع سابق. ص 41.

10 -Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, op. cit. p :35.

11 -ibid. p :40.

12-CH. Perelman, L'empire Rhétorique, Rhétorique et Argumentation, op. cit. p :23-31.

13 - \_ Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, op. cit. p :105-106.

\_ Michel Meyer, De la métaphysique à la rhétorique, p :22.

14- Michel Meyer: Logique, langage, et argumentation, P 136 .

**15-** أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة: د محمد العمري، ضمن: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 218.

**16-** Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, op. cit. p :107.

**17-** أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ص 220.

**18-** Philippe Breton, Gilles Gauthier : Histoire des théories de l'argumentation, op. cit. p :55-56.

**19-** ibid. p :62.

**20** - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد صبحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، الطبعة الأولى، دار الرشيد 2000.

**21** - بخصوص مفهوم الخطاطة، أكدنا في كتابنا الموسوم بـ "الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر" على ضرورة العودة إلى بعض المقترحات الواردة في عدد من الأعمال اللسانية والمنطقية كما هي لدى يالمسليف و. غريز (ج. ب) و آدم (ج. م.)، وكذا الاستفادة من التصورات المبنية في علم النفس والتحليل النفسي بالنظر إلى الأصل الذهني والنفسي لهذا المفهوم.

**22-** Jean Dubois, et al. : Dictionnaire de linguistique, p : 416.

**23-** Dictionnaire d'analyse du discours, Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, p 518.

**24-** Jean-Blaise Grize, Argumentation et Logique Naturelle, p : 265.

**25-** Dictionnaire d'analyse du discours, op. cit. p 519.

**26-** Dictionnaire d'analyse du discours, op. cit. p 519-520.

**27-** فرج عبد القادر طه (وآخرون)، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ص 322.

**28-** فرج عبد القادر طه (وآخرون)، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ص 693.

**29** - لا نتفق مع ما ذهب إليه كثير من أصحاب النظريات اللسانية وتيارات تحليل الخطاب، ومنه ما ذهب إليه براون ويول في قولهما: « من المستبعد أن تستعمل عبارة ما من عبارات لغة طبيعية في أي ظرف من الظروف لأداء وظيفة واحدة فقط مع استبعاد الوظيفة الأخرى بصفة كلية. أما الوظيفة الأولى التي تؤديها اللغة والمتمثلة في التعبير عن "المضامين" فنسميها وظيفة "تعاملية". وأما الوظيفة المتمثلة في التعبير عن العلاقات الاجتماعية والمواقف الشخصية فنسميها "وظيفة تفاعلية". انظر: جليان براون وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود 1997، ص 1.

**30** - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 215.

**31** - O. DUCROT, les échelles argumentatives, p 10-11.

**32** - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، الجزء الأول. ص 5.

**33** - نفس المرجع، ج 1. ص 6.

**34** - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 1. ص 5.

**35** - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 1. ص 5.

**36-** CH. Perelman, L'empire Rhétorique, Rhétorique et Argumentation, op. cit. p :23-31.